فضيلة
د.عثمان بطيـــخ

مفتي الجمهورية التونسية ، وزير الشؤون الدينية سنة 2015، حامل لعدة أوسمة رسمية. وقد حصل على شهادة دكتوراه الدولة سنة 1982م. وألف العديد من البحوث والدراسات والمقالات .

فضيلة د. عثمـان بطيـخ

في البداية:

من الضروري أن أتوجه بالشكر البليغ إلى الإخوة الأعزاء في الإمارات لدعوتهم الكريمة لي لحضور فعاليات المؤتمر العالمي للأخوة الإنسانية الذي سيلتئم بعاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة أبو ظبي. كما لا بد من التنويه بحسن اختيار الموضوع الذي يكتسي أهمية قصوى نظرا لصبغته الدولية؛ إذ هو موضوع الساعة حيث كثرت الاختلافات وتعددت أسبابها كما انتشرت العداوة والفرقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، ووصل الأمر إلى انتشار العنف عبر التصفية الجسدية وإعلان الحروب لسبب ولغير سبب.

في حين خلنا أن عصر الاقتتال والكراهية والنعرات العنصرية وعقدة التفوق الجنسي والعرقي قد ولت بغير رجعة بفضل صدور المواثيق الدولية وإعلان مبادئ الأمم المتحدة للسلم والحرية والمساواة إلا أن كل الجهود المبذولة لم تفلح في كبح جماح الغرائز الكامنة في نفوس الكثير من البشر وما يترتب عن ذلك من ردود أفعال عنيفة ساعدت على تأجيج الوضع وتأزمه وظهرت منظمات تتصف بالعنف والإرهاب محاولة منها لفرض وجودها وأجندتها بالقوة، وأعلنت الحرب على كل من خالفها في مناهجها الفكرية وأساليب تصرفاتها التي لا يقبلها دين ولا عقل، فلم تردعها المآسي التي

خلفتها الحروب التي مرت بها الإنسانية عبر التاريخ؛ وخاصة اندلاع الحربين العالميتين الأولى والثانية وما سببته من تقتيل مئات الآلاف من البشر وتشريد الملايين الأخرى، مع ما رافق ذلك من انهيار حضاري واقتصادي واجتماعي.

وكان الأجدر أن تنفق نفقات الحروب على ازدهار العلوم وما يحقق للإنسان أمنه ورفاهيته، والمثير للرعب حقا أن تبرز منظمات ودول عنصرية لا هم لها إلا إشعال فتيل الاقتتال في كل مكان من العالم واحتلال أراضي الشعوب المستضعفة بقوة السلاح الرهيب وهو الجانب المظلم في تاريخنا المعاصر. وكان الأصل أن يتوحد العالم على أساس قيمة المشتركة لإحلال السلام والتنمية في ربوع الأرض دون تمييز.

والحمد لله أن تعود بوادر الإصلاح من خلال مؤتمرنا هذا الذي سيحرك السواكن ويطفئ لهيب الفتن في النفوس ويصحح المفاهيم المغلوطة التي تنتشر من هنا وهناك. ومثل هذا المؤتمر سيكون له إن شاء الله إسهامه القوي في إعادة نشر القيم الإنسانية الراقية؛ كالعدل والمساواة والسلم بين متساكني المعمورة لتكون واحة سلام وأمان ووئام ومحبة.

ولقد اخترت المساهمة بورقة حول المحور الأول وهو إسهام الأديان السماوية الثلاث في تأسيس قيم ومثل عليا ومبادئ مشتركة؛ وهو مما يقتنع به عقلاء العالم رغم اختلاف المشارب والثقافات، وكلهم متفق على ضرورة مقاومة العنف والإرهاب والتطرف لأنها سبب المصائب كلها.

وتعتبر المواطنة كقيمة مدنية مشاعة بين الجميع أهم رافد لمقاومة الغلو والتطرف والإرهاب والقضاء على أسباب ظهور هذه الانحرافات الخطيرة وتداعياتها الكارثية على المجتمع والوطن.

والمواطنة فيها انتساب الوطن معين محدد وهو عبارة عن مجموعة من البشر تعيش على جزء ترابي لها نفس الأهداف والميولات والطموحات وتتعاون من أجل بلوغ مصالحهم

المشـتركة طبـق نظـام سياسـي يختارونـه وقوانيـن تنظـم الحقـوق والواجبـات، ولهـم لغـة مشـتركة بهـا يتفاهمـون وبهـا يعرفـون بقطـع النظـر عـن الديـن أو الديانـات إن تعـددت فـي الوطن الواحد.

والإسـلام كمـا هـو معلـوم أسـس مـن أول ظهـوره فـي المدينـة المنـورة وبعـد الهجـرة النبويـة -علـى صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم- دولـة مدنيـة تتوفر علـى جميع مقومات مجتمع منسجم ومتعاون.

فيـه المهاجـرون والأنصـار وفيـه أهـل الكتـاب وهـم اليهـود بالأسـاس، وعلـى أسـاس المواطنـة المشـتركة والحريـة والمسـاواة؛ وكل ذلـك نصـت عليهـا وثيقـة المدينـة أو مـا يعـرف بصحيفـة المدينـة؛ وهـي دسـتورها الـذي قـام علـى عهـد بيـن الجميـع فـي إحـلال التفاهـم بـدل الفرقـة، والسلام بدل الحرب مع ضمان حرية التدين.

وبمقتضـى هـذه الوثيقـة تركـز مفهـوم الدولـة الحديثـة التـي يطيـب فيهـا العيـش علـى أسـاس الـولاء للوطـن، بقطـع النظـر عـن الديـن والعـرق واللغـة، واحتـرام القوانيـن والتشـريعات التـي يقررهـا الاتفـاق أو حصـول الأغلبيـة، والدفـاع عـن الوطـن مـن كل مـا يهـدده مـن أخطـار خارجيـة وداخلية.

مواجهة التطرف

مـا هـو التطـرف؟ سـنحاول تبسـيط المفاهيـم والأسـباب والنتائـج مـن خـلال النصـوص الدينيـة ومـن واقـع التطبيقـات العمليـة قديمـا وحديثـا وفـي واقعنـا المعاصـر. والتطـرف يقابـل الاعتـدال والوسـطية فهـو ميـل عـن الحـق والعـدل وكلمـا وقـع الابتعـاد عـن الوسـط نحـو اليميـن أو الشـمال فعندها يكون الغلو والتطرف.

وربمـا اشـتد فيصيـر إرهابـا معنويـا أو ماديـا فيشـمل التخويـف باللفـظ. ويمكـن أن يتطـور إلـى

عنف فعلي جسدي: (بالقتل أو التعذيب أو الحبس أو التشويه..) وهو ما يدخل في النفس الرهبة والخوف والاضطراب والقلق وعدم الاطمئنان وترقب حصول الشر في أية لحظة. والإرهاب يقصد بهذه الوسائل اللاإنسانية فرض السيطرة على جماعة ما؛ مما يجعل الفئة المستضعفة تفقد الأمل في النجاة وتستسلم منقادة صاغرة ذليلة.

وقد مرت الإنسانية بفترات متعددة في تاريخها شهدت فيها الويلات وعرفت فيها تقلبات عسيرة مما أدى إلى انكسار دول وحضارات مختلفة بعد فترة ازدهار وقوة؛ لتحل محلها جماعات متوحشة تحمل تارة لواء الدين متخفية ببرقعه للتضليل على الناس، وطورا باسم العنصرية العرقية، ولكنها لا تمتد طويلا وتنتهي بالاختفاء من الوجود. ومن هنا يأتي دور الديانات ومواقف أصحاب الفكر من الفلاسفة وزعماء السياسة الإصلاح المجتمع.

وقامت الفلسفة بدور مهم في تحرير الأفكار من قيود الكبت والانغلاق حيث أيقظت عقول الشباب واستنهضتها إلى البحث والتفكير، ولكن انحصر مفعول ذلك في حدود طبقة معينة وانساقت بعدها إلى نوع من الجدل العقيم الذي لا طائل من ورائه.

دور الدين في إصلاح المجتمعات:

والدين هو العقيدة التي يتقبلها الفرد والمجموعة عن اقتناع حر كنظام حياة، وهو يشمل الإيمان بمعبود معين وأنواع من الطقوس والأحكام والأخلاق مع حصول الثواب أو العقاب في الحياة الآخرة. وهذه الديانات منقسمة إلى ديانات وضعية من ابتكار البشر كالهندوسية والزرادشتية والكونفوشيوسية والبوذية وغيرها. وديانات سماوية جاء بها أنبياء ورسل من البشر اصطفاهم الله لمهمة الهداية والإصلاح وأشهرها الأديان الثلاثة المعروفة في العالم: (الموسوية والمسيحية والإسلام). وأنزل على هؤلاء الرسل كتبا تدعو إلى عبادة المولى عز وجل لا شريك له باعتباره الموصوف بصفات الكمال؛ وهو واجب الوجود الخالق لكل شيء، المحيي والمميت، وهو على كل شيء قدير.

كما تتفق الأديان الثلاثة على أن الحياة الدنيا تنتهي إلى حياة أخرى دائمة فيها جزاء بالجنة أو عقاب بنار جهنم؛ وهي تدعو ثلاثتها إلى حرية الإنسان في فكره وسلوكه طبق قواعد أخلاقية ومبادئ اجتماعية مضبوطة وسلوك أخلاقي يجمع ولا يفرق وقيم ثابتة كالعدل والمساواة وغيره من المبادئ السامية التي تجعل البشر مهما اختلفت جنسياتهم وألوانهم ولغاتهم ومعتقداتهم إخوة في الإنسانية؛ لهم حق الحياة الكريمة التي تثمر لهم السعادة في الدارين.

ولم تنتصر هذه الديانات وتنتشر في العالم إلا بعد صعوبات وتضحيات جسيمة أليمة لأصحابها وأتباعها وأنصارها بسبب ما وجدوه من العداوة القوية والصد لهم؛ رغم أنها ديانات تدعو إلى الحوار وإعمال العقل ونبذ التعصب للرأي.

وسأقتصر على الحديث عن الدين الإسلامي الذي أنتسب إليه ولكل شرعته ومنهاجه وخصوصياته التي يتميز بها؛ فالذي يجمع بين الأديان السماوية الثلاث هي العقيدة فكلنا يعتقد بوجود إله واحد خلقنا وخلق الكون كله وهو الذي نعبده. كما تجمع بيننا القيم والأخلاق من صدق ومحبة واحترام وتقدير، والاعتراف بالحق في الوجود بقطع النظر عن الاختلافات الثقافية والحضارية والدينية، والحق في العيش الكريم في نطاق السلم والأمن اللذين يجب أن يكونا متاحين للجميع، وكذلك قيم المساواة في الحقوق والواجبات والمعاملات؛ ولنا من النصوص القرآنية ما نثبت به هذه القيم والمبادئ الإنسانية، ومنها ما يتعلق بحق التنوع والاختلاف كأمر طبيعي وفطري كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: 118]. كما أكد القرآن الكريم على حرية الاعتقاد وعدم إكراه أحد من الناس على أن يتبع دينا لا يختاره بكامل حريته قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس :77] ومنها قوله تعالى ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...﴾ [البقرة : 256].

كما أكد القرآن على أن الخلافات تحل بالحوار وسماه القرآن بالمجادلة وقد جادلت امرأة

رسول الله ﷺ في علاقاتها مع زوجها؛ وهو درس في التواضع وحسن التصرف بين الناس، وكان ذلك في سورة كاملة اسمها سورة المجادلة. ومنها ما نزل في أدب الجدال بطريقة موضوعية خالية من الأفكار المسبقة وهو قوله تعالى ﴿... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: 24]. ومنها وجوب احترام من لا يشاطرك الاعتقاد أو الرأي وقد تزول الخلافات بحسن التعامل وبالكلمة الطيبة والصبر في معالجة المشاكل قال تعالى: (...ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت 34 - 35]. وهذا السلوك ينطبق على غير المؤمنين من أصحاب الكتب السماوية؛ وكذلك الذين لا يؤمنون بأي دين ولهم معتقداتهم الوضعية قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ [الأنعام 108].

هذا وقد كان سلوك المسلمين في البلاد ذات الأقلية غير المسلمة إزاء الهندوسيين مثلا أو البوذيين وغيرهم على أساس الاعتراف لهم بحرية المعتقد ومباشرة طقوسهم واحترام أصنامهم ولم يقع الإنكار عليهم ولا تهديم معابدهم ولم يقع ذلك إلا في الأيام الأخيرة لما انتشر التطرف الشديد فضرب كل من يخالفه وذلك بطريقة عشوائية وحشية دموية بشعة. وقد بين لنا الله سبحانه وتعالى من هو المقرب إليه ذاك الذي يتقي المعاصي ويتجنب المخالفات ويكف يده ولسانه عن الظلم والاعتداء، ووضح القرآن لنا بصورة جلية أن في اختلافنا شكلا ومضمونا مدعاة إلى التعارف والتقارب والاستفادة من بعضنا البعض والاقتباس من الحضارات المتعددة، ولا يكون ذلك سببا مطلقا لأن نتباغض ويعادي بعضنا البعض الآخر قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات 13].

ظهور التطرف في المجتمع الإسلامي:

باستقراء التاريخ العربي والإسلامي ثبت أن التطرف لم يظهر بظهور الإسلام ولا في عهد رسول الله ﷺ؛ فقد كان الرسول ماسكا بزمام الأمور بتوجيه إلهي عن طريق الوحي بالقرآن

الكريم وبما صدر عنه من سنة قولية وفعلية وتقريرية. وقاوم النبي مظاهر التعصب بالكلمة الطيبة والحكمة كقبوله صلح الحديبية سنة 6 من الهجرة وكوثيقة المدينة المنورة.

وبوفاة النبي ﷺ انقطع الوحي وانتهت الفترة التي كان فيها الصحابة رضي الله عنهم مبهورين فيها بنبيهم وصدمتهم وفاته وبدا من بعضهم نتيجة تلك المحبة المفرطة شيء من التشدد في عدم قبول خبر وفاته ﷺ مثلما حصل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي لم يتمالك نفسه حتى أشهر سيفه في وجه من يقول إن محمدا قد مات، ولكن هذا الشعور الجارف سرعان ما هدأ بتدخل حكيم من أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما ذكرهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:144]؛ فتماسك المسلمون بعد ذلك واستمر استقرارهم إلى عهد عمر بن الخطاب الذي توفق باقتدار وكفاءة في توطيد أركان الأمن والانسجام والتعاون بين أفراد المجتمع. ولكن حياته انتهت باغتياله من أحد المتطرفين. وشهد المسلمون في أواخر عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وبعد مقتله عصر الفتنة الكبرى نتيجة ثورة قام بها من كان معارضاً لسياسة عثمان وعمت الفوضى وانتشر التعصب والإرهاب ولم ير المجتمع استقراراً بعد ذلك.

ظهور الفرق الإسلامية :

في هذه الفترة انقسم المجتمع بين سنة وشيعة وظهرت المعتزلة والخوارج وتفرع عنهما فروع عديدة وتشابكات كثيرة وظهر التعصب وذاع حتى أصبح سيد الموقف وتحول الكل ضد الكل. وظهرت أخيرا فرقة من الحنابلة ممن يسمون أنفسهم بالسلفية العلمية والسلفية الجهادية فبالغوا في التعصب حتى بلغ بهم مبلغ تكفير المسلمين، ومنهم من رفع السلاح في وجه مخالفيهم واستباحوا دماءهم ظلما وبهتانا.

والتطرف واحد سواء كان من اليمين أو اليسار ويكون بالإيغال في الإيديولوجيات حتى يتحول الأمر إلى عنف مادي ومعنوي مما يسبب الخوف والهلع في نفوس الناس وهو

يهدد الحرية الفكرية والحرية الدينية إلى أن يصبح الإفصاح عن الرأي نوع من المجازفة غير مضمونة العواقب كالتصفية الجسدية والتكفير، زد على ذلك ما نراه من تجييش العواطف وإثارة الدهماء على العلماء والعقلاء وأصحاب الاجتهاد ويكون رد الفعل في الغالب تطرفا ينسف كل القيم والآداب والأخلاق. وقد وجد الإرهاب في كثير من المناطق حاضنة من داخل المجتمع ومن خارجه، وهو ما ساهم في تخلف المسلمين وتجهيلهم وتبعيتهم إلى غيرهم من الأمم.

التصدي للتطرف :

مكافحة التطرف واجب ديني وأخلاقي ووطني وإنساني، لأن القيم العليا تقر بضرورة التعايش بين الناس كلهم في أمن وطمأنينة واستقرار، ويتيح لهم الحرية في نطاق المسؤولية واحترام حقوق الآخرين وطبق القوانين الطبيعية والإنسانية التي تؤمن بها الديانات المختلفة سماوية ووضعية وكذلك الفلسفات. ويكون التصدي للفكر الهدام بأسلوبين متوازيين معا:

1) الجانب الأمني هو مطلب شرعي وواجب ديني وضرورة أخلاقية للقضاء على العنف وبسط الاستقرار بقوة السلاح دون الالتفات إلى بعض المنظمات التي تعمل تحت غطاء حقوق الإنسان ولكنها في الحقيقة تساعد على نماء الإرهاب.

2) الجانب الفكري ببيان زيف بعض الأفكار الرائجة المتشددة والكشف عن مدى خطورتها وضلالاتها، ويتم ذلك بنشر ثقافة الحوار والاهتمام بالشباب خاصة ونشر التوعية الدينية السليمة وتربية الناشئة على القيم الأخلاقية والمدنية كالتحابب والتعاون والتسامح، وعلى هذا تجتمع الديانات والفلسفات المختلفة. وهو دور رجال الدين من مسلمين ومسيحيين ويهود وكذلك دور كل الأحرار في العالم.

ويجب استغلال كل وسائل الاتصال والإعلام لما لها من الأهمية وسرعة التأثير والانتشار

خصوصا في أوساط الشباب حتى لا يبقى فريسة سهلة ولقمة سائغة للدعوات المضللة، ويجب أن يكون هذا الدور مسترسلا لا انقطاع فيه فلا تفتر العزائم عنه فيجد الإرهاب مداخل أخرى يتسلل منها مع ضرورة الاستفادة من خبرات بعضنا البعض وتوثيق التعاون العالمي في هذا المجال وعليه يجب التنسيق المستمر مع النخب العلمية والأدبية ووضع خطة مشتركة قابلة للتحيين من حين لآخر بحسب ما تقتضيه الظروف والطوارئ.

والله ولي التوفيق.